حكاية الرجل
الذي قصّ عليّ حكاية يعتقد أنها تهمني

زرت مرة بيت صديقين، كنت قد تعرّفت عليهما في تجمع تكريمي لا أذكر الآن حول أي شيء لطالما مناسبات التكريم شبيهة الواحدة بالأخرى. أحياناً أشك بأنني تعرفت عليهما في مناسبة تكريمية، ولكن يجب أن ترضى بما أقصّه عليك، لأنني لا أجد مخرجاً محكماً آخر غيره. في تلك المناسبة، ما أن عرفوا أنني عراقي حتى ألحوا علي بزيارتهم نهاية الأسبوع وأخبرني الزوج وزوجته (لم أسألهما عن أسميهما، أو أكون قد سألت ونسيت، طالما أن ذاكرتي تحتفظ بالهيئة أكثر من الأسماء؛ ألم يقل أحدهم أن الأسماء غباء، شبيه بغسل الأحجار المبتلة في الماء). لم أكن بالمرة مولعاً بتلبية الدعوات أو من هواتها، ولكنني لسبب أو آخر بقي في بالي نهاية جملة الدعوة وهما يكرران: "سترى كم هو مميز. نبيذ طاجكستان!".

التفكير الآن بعلاقتهما بطاجكستان، لا يمنحني أي تخمين معين (ثم من أين لي معرفة أين تقع طاجكستان؟)، ولكن كلمة نبيذ السحرية علقت برأسي مثل تعلق خيط بالبكرة، فقررت تتبعه.

ما أن وصلت بيتهما (شاليه، فيلا، قصر أو بيت ضخم أكثر قرباً له من كلمة بيت) حتى دخلت دون طرق الباب، لأنني وجدته مشرعاً. لم يستقبلني أحد، فقد كان هناك حشد هائل من الناس، تجمعات صاخبة، يتحدثون بينهم، يتصارخون أو يشربون من كؤوسهم فحسب على خلفية موسيقى تضارب طبول،

ظننتها أفريقية. فكرت بالإقتراب من طاولة المشروبات لعلي أجدهما، لم أعثر عليهما. تناولت كأس نبيذ وانتحيت جانباً أقصى الصالة، جلست في أريكة مريحة وشرعت بالتمتع بتذوق النبيذ. قبل أن أصل لمعرفة الطعم الغريب وتمييز نوعيته وكيفية صناعته، مفكراً باحتمالات متعددة . لطالما أصبحتُ خبيراً فيه منذ مدة طويلة . حتى سمعت صوتاً أجشاً يصدر عن رجل جلس بالطرف الآخر للأريكة وهو يعلق:

– أنت جئت من أجل النبيذ كالآخرين؟

نظرت باتجاهه ولم أحر جواباً، فالمسألة أنه تدخل في اللحظة التي بدأت فيها بمداورة النبيذ في فمي لتحسس تلك الرائحة المغرية للشراب.

– لا تقلق، أغلبنا جاء للسبب نفسه. قال الرجل الأشيب دون أن ينتظر اجابتي.

لكنته بدت لي من جنوب أسبانيا، ولكنه دون شك أسباني وليس أجنبياً مثلي ومثل آخرين حضروا حفل النبيذ هذا. مددت يدي ليده الممدودة وهو يقدم نفسه، قلت له أسمي المزيف، من أسماء عديدة مزيفة أستخدمها بمناسبة وغيرها.

– اذن أنت من طاجكستان.. أسماؤكم تعجبني ففيها رنة غريبة نفتقدها نحن الإسبان.

سألني بعدها عن النبيذ وكيفية عمله في بلدي (المخترع من قبله)، فشرحت له بزيف لا مثيل له عن طرق تحضيره في طاجكستان، واحلته لتذوق النبيذ في تلك اللحظة لتمييز ثلاثة أصناف من الفاكهة المختلطة في برميل المنشأ، والطعم المر في نهاية التذوق اثناء اندلاقه في البلعوم، يعود لبراميل الحفظ المصنوعة من خشب الأرز المشبع بالدم، دم أضاحي حيوانية ممزوجاً ببضع قطرات بشرية، التي غالباً ما تعود لفتيات عذراوات.

رأيته يبتسم بدهشة ويجلس بقربي حتى يكاد يمسني باكتافه، يغمض عينيه ويتمضمض بفمه، غرق بعدها في غيبوبة تامة لا تفرقه عن ميت سوى تعابير ارتياح علت وجه، كأنه بها أكتشف سر الأبدية.

للحظات نسيته واقتربت من الطاولة لملء كأسي مجدداً. ما أن عدت حتى رأيته مسترخياً بانتظاري.

– سر نبيذك لا مجال لأكتشافه دون تفسير.. أريد أن أشكرك لكشفك السر. قال بجدية تامة.

– النبيذ سر بحد ذاته، وما قلته يعرفه الجميع. كذبت

– لا.. لا تقلل من قيمة معلوماتك.. ولكن..

صمت ولم يكمل جملته. لم أعرف كيف أرد عليه.. فشربت كأسي الثانية.

– .. ولكن دعني أقول لك.. ما أريد أن أقصه عليك ليس بأهمية سر النبيذ، ولكنني لا أعرف غيرها.. سأهديك هذه الحكاية.

في مرات عديدة أكتشف أن كل الذين تعرفوا عليّ للمرة الأولى أرادوا قصّ حكايتهم، ولم أعرف سبب ذلك. فكرت بأنني ربما أكون أذناً سميعة بامتياز، ولكنني توصلت في النهاية إلأى أن لي وجه شخص انعزالي مفضوح، فيظن الآخرون باستحقاقي لحكاية تنتشلني من وحدتي. مشاركة غير مباشرة تطيل رمق حياتي الخاوية. في كل مرة . أيضاً. رفضت عروض الحكواتية، ولكن رفضي لم يجد نفعاً. في الواقع لم ينتظر أحدهم رأيي أو رغبتي بسماعه، فما أن ينطقوا بجملتهم، حتى يكونوا قد بدأوا السرد.. ومنهم بالطبع مشاركي بالنبيذ والأريكة المريحة.

(إستمع إذاً..) قالها ومرر لسانه على شفته العليا.. ثم حكى:

– .. في الواقع لست أسبانياً، لكن الجميع يظن ذلك، وفي كل مرة أعتقد بما يعتقدونه. جربت العديد من هذه الأسماء المنتحلة حتى صدقت أنني أسباني

بالفعل، ولصقت بي الأسماء أكثر من اسمي أو هويتي الحقيقية. أنا من جنسية أخرى (لا أجدك متحمساً لسؤالي عنها، فلننسها) وصلت وعائلتي عندما كنت ما أزال صغيراً، ولكنني لليوم أرفض أن أقول جنسيتي وأسمي الحقيقي. تنتابني الرغبة في بعض المناسبات بأن أسر جلسائي بذلك، وما أن أتخلص من الثقل حتى أخرج خاوياً، فقيراً لسبب ما، فأقع فريسة العزلة والأيام الطويلة بلا معين.. ما أن تعافيت للمرة الأخيرة من كشف سري حتى قررت المضي بلعبة انتحالي المعتادة.

كان قد مر عليّ وقت طويل يتلبسني أسمي وجنسيتي المنتحلة، ففكرت أن الوقت حان لكشفه لأقرب صيد.

كنت أجلس في أحدى مقاهي الشوارع الصيفية في وسط مدريد وأقترب مني شخص يسألني أن كنت أسمح له بالجلوس معي على نفس الطاولة.. قبل أن أعرف مرامه، قال مشيراً بيده:

– كما ترى فالمناضد مشغولة، ووجدت أنه من الممكن أن أجالسك.. هذا أن وافقت، وأعدك ألا أزعجك إطلاقاً!

وافقت دون تحمس، فلم يكن وجهه يوحي بأنه سيكون واحداً من معارف سري، ولكنني قبلت على مضض، معتقداً أنه لا مجال لرفض طلبه. في الواقع كان رجلاً ودوداً، متكلماً من أولئك الذين تشعر بأنك تعرفهم منذ وقت طويل. لهذا السبب أو لغيره بدأنا الحديث كأصدقاء قدامى.. دعني أوضح أمراً.. ففي الحقيقة، كان متعطشاً للحديث، ولا بد أنه قد وجد ضالته بشخصي، لهذا السبب وليس لغيره، بدأ يحدثني عن روعة الشمس في الصيف ولكنها ليست الشمس ذاتها في بلده. وقبل أن أسأله من أي بلد هو، قدم نفسه بكونه هارباً من العراق أوصلته قوارب المهربين من المغرب لأسبانيا، وبقي في البلد لأنه أكتشف في الشهر الأول أن ساحة بوابة الشمس وسط مدريد تذكره بالباب الشرقي وسط بغداد، فظل مداوماً فيها ولم يفكر بالبحث عن بلد أوربي آخر. كانت المرة الأولى التي التقي بها

بعراقي منذ سنين طوال، وكانت المرة الأولى التي بقيت فيها مشدوداً لكلام شخص لا أعرفه حق المعرفة. عندما طلب قهوة من النادل، استمع لنصيحتي باضافة قطرات من عرق الشينشون المحلي لقهوته، فأعجبته الفكرة وكرمني بأن دعاني لشرب قهوة على حسابه، فهززت رأسي بالموافقة. كان يتلذذ بشرب قهوته عندما نظر لي بتركيز وقال: "لأنك علمتني هذه الوصفة السحرية لشرب القهوة، لتسمح لي أن أحكي لك حكاية لم أحكها لآخر، أنت الأول بسماعها من فمي".

تصور مسألة أن تجالس شخص لا يعرفك ولا تعرفه، ويهديك بأريحية حكاية خاصة بك، فلا بد أنني لم أجب لحظتها وبقيت منصتاً لما سيجيء به كأي واحد منا عندما يقتله الفضول. ابتسم مغمض العينين وسرد ما أحكيه لك الآن، إذ قال:

– .. كنت طوال حياتي أخشى الموت.عرفت هيئته منذ اليوم الأول لولادتي. أهرب منه قبل أن يصل حدود مكاني. أغافله وأتلاعب به كي لا يصيدني، ونجوت منه كما ترى. لم يكن لي مهنة في بلدي غير الزوغان والهروب حتى أصبحت لصيقة بي، ويعرفني الناس من خلالها. لكن كما تعرف وأنت سيد العارفين، فالموت يجيء خلفنا بأردية وهيئات مختلفة، ما أن نكتشفها حتى يكون قد فكر بغيرها. لست شجاعاً صدقني لأنتصر على الموت، بل كنت أكثر عائلتي خوفاً ومحترساً من وصوله عتبة بابي، لذا كنت أسرع منه بالإختفاء. ولادة متعسرة وخروج للعالم بوجه مزرق. في طفولتي غرقت ورأيت الموت ينشر أسماله حولي، فتصارعت مع الموج وقررت الوصول للجرف، ولو تعرف لتعجبت إذ أنني لم أسبح بحياتي لمرة، ولكنني حينها تعلمت السباحة. ضربتني سيارة مسرعة في مراهقتي، وقبل أن تشرق ابتسامة الموت الملاحق لي، فكرت ألا أنام في غيبوبة، فبقيت صاحياً متحملاً الآلام وأنا أرى قدمي مسحوقة تماماً والناس تهرع لنقلي للمستشفى. في شبابي طردوني من الجامعة ولم يتركوا لي فرصة أخرى غير أن أكون جندياً في حرب ثمان سنوات متواصلة. شاركت في كل معاركها، رأيت الموت يحصد

أصدقاء لي بالألوف، يحرق مدناً بالكامل ويحيلها رماداً. كنت وقتها لا هدف لي غير مراوغة الطائرات والمدافع والرشاشات وهي تحاول تمزيق جسدي، فكنت أتقيها بخفة مهرولاً بينها، متفادياً رصاصها المنهمر، الذي أكل من جسدي اشلاء متفرقة، دون أن ينال مني كلياً.. لم أكن ساحراً، ولكنني فهمت أن مهمتي في الحياة، لم تكن مثل الآخرين، كان لي مهمة واحدة هي البقاء على قيد الحياة. قررت المواصلة ومباغتة الموت بالهرب، قبل أن يباغتني بشراسة عضاته. كان الأنتصار الأكبر لي على الموت، فقد أنتهت الحرب ولم يصرعني. تقاويت عليه وفكرت أنني لن أموت كما يرغب سارق اللذات ومفرق الجماعات، وتأكدت من جديد بأنني نجحت بمهمتي. لم تمر سوى أشهر حتى ساقوني جندياً في حرب أخرى. كنت واقفاً عند ساتر يحمينا إذا ما بقينا في الأسفل، ولكنني توصلت إلى أن الموت قد تركني حراً ولم يعد يجري ورائي. في تلك الساعة تماماً رأيته واقفاً عند الساتر المقابل، لم يتغير بشيء، الوجه نفسه متورداً والإبتسامة التي رأيت آخر مرة هي نفسها، كان متأهباً للقائي وكأنه يحضر لخشبة إعدامي.. قلت بصوت عالٍ، صارخاً بوجهه:

"ولا هذه المرة سأسمح لك بأن تقتنصني"، فأعطيته ظهري، ولم أتوقف عن الجري.

هربت مرة أخرى، محترساً من كل شيء، حتى فقدت أثره. أيام طويلة بلا توقف. هربي أوصلني أرضاً لم أرها بحياتي، فعرفت أنني قد تركت البلد، ولم يعد هناك من يتعقبني. جربت المشي للأمام بلا توقف، اجتزت جبالاً، ومررت بأراض بور، وعبرت بحاراً بقوارب متهالكة، انتحلت كل شيء وزيفت كل شيء حتى أسمي وهويتي، امتهنت ما لا يمكن تصوره، وصنعت ما لم أعرف أنني أستطيع صناعته.. لا تظن أنني أمر بسرعة على الأشياء المهمة في حياتي بعد فقدي لأثر الموت من خلفي.. أنا أعرف بأهميتها أكثر من الآخرين، ولكن معاودة تذكرها لا

فائدة منه هنا لطالما سردها أحدهم قبلي، منتحل مثلي ومهرها بإسمه على أنها قصصه وحكاياته في كتاب أظن أن أسمه (انتحالات عائلة وبعض من حيل ووصفات أخرى) فكما ترى أنه لا يحق لي تذكرها كحياة خاصة بي طالما ألتصقت بإسم وانتحال آخر، ليس مهماً بالضرورة أن نذكر كل شيء مر بنا، كما أن كل ما مر بي، لا بد أنه قد مر به غيري، فلماذا عليّ التفكير بأن قصص الكتاب قصصي حتى وإن كانت شبيهة تماماً بقصص حياتي التي سردتها لصاحب الكتاب وانتحلها له.. المهم أنني لا أريد تكرار القصص نفسها، على الرغم من أننا نكرر القصص ذاتها من موقع لآخر.

لذا فكرت حينها، بأنني قد انتصرت.

للمرة الأولى منذ سنين أشعر برغبة أن أستريح باغماض عيني ولو لساعة. كانت تلك ساعتي الأولى بالإسترخاء منذ ولادتي. استيقظت دون رعب، فقررت أن أعاود النوم إلى ما لانهاية.

ينام الواحد منا وهو لا يفكر متى يستيقظ، وأظنني شبيهاً بالجميع. استيقظت عندما رأيتني مستيقظاً وحسب، ولم أعد للتفكير بملاحقة الموت لي. منذ تلك اللحظة لم أعد أرى الموت. لم يعد يتبعني، ولم أشعر بخطواته ولا أحس بشراشيب ثوبه وهي تخط الأرض مقترباً بوجل وخفة كي يجثم على جسدي ولا أجد منفذاً أو فرصة لمقاومة بعد ذلك.. ها أنا أمامك بلحمي ودمي، لم أترك فرصة دون تجريب، ولم يترك الموت فرصه دون تجريب، لكنه فشل بملاحقته لي، بينما نجحت بمهمتي الوحيدة في الحياة: الهرب والنجاة... يمكنك أن تعتبرني الوحيد الذي لم يهزمه الموت...الآن أعيش وحسب بلا خوف من ملاحقته.انتهى كل شيء.. أنا حر!

عندما انتهى رفيق الطاولة من حكايته، لم يزل بعد مغمض العينين. لم يفتحهما لمرة اثناء حكيه وكأنه أراد أن يستذكرها كما هي بلا نقصان ولا تغيير.

اقتربت أكثر من الطاولة وهززته من كتفه. عاد لوضعه الأول ولكن بعينين هادئتين، لامعتين دون أثر لدمعة واحدة. كنت مستغرقاً بتفاصيل ما سرده لي، ولكني بدلاً من أن ينتابني الفرح والدهشة، كنت قد غرقت بحزن لم أعتده منذ زمن. طرقت على الطاولة بأصابعي وطلبت منه أن يقترب أكثر. انحنى تاركاً الكرسي للخلف، فتلاقى رأسانا وكأننا على وشك التناطح. فقلت له بصوت واهن ولكن واضح النبرة دون أن يفارقني الكدر المرتسم على الوجه:

– تقديراً لكرمك، فلتسمح لي أن أقص عليك شيئاً.

بحت له بسري في أذنه وخدانا ملتصقان الواحد بالآخر.

بقيت أنظر في وجهه لأرى أثر ما كشفته له. لم ينظر لي ما أن قلت جملتي الأخيرة، بقي مطرقاً ونظرته تواجه الأرض. قام بعدها، وضع نقود ما شربناه على الطاولة وتركني دون كلمة. أبتعد حتى زاوية الشارع وتوقف، لكن دون أن يلتفت ولو لمرة واحدة. أحسست أنه يفكر بكلماتي، الرأس مطرقة وأصابع يديه وحسب تتحرك بتشنج غريب لا تراه سوى لدى راقصي الفلامنكو. حدة وتصميم بتوجيهها. لم أستطع ترك نفسي دون مراقبته وهو يبتعد، ثم يتوقف عند زاوية الشارع، أسفل بناية تجارية. للحظات فكرت انه لم يعد يتنفس أو توقف عن تحسس ما يحيطه. كنت موجهاً بشدة لمراقبته وتقدير حركاته. لمحت خيط تغير بحركة أصابعه من التشنج للإرتياح وتركها تنفرج وتسقط كخرقة مبلولة، شبه زهرة عباد الشمس منكسة الرأس.

انتفض رأسه فجأة بحركة واحدة وأرتفع كلياً ليبقى مركزاً نظره للأعلى حتى أبعد نقطة من البناية.

كنت الشاهد الوحيد لما حصل، قد لا تصدقني، ولكن ليس المهم أن تصدق ما أقول، فهو ما حصل بلا أي تزويق ولا أية أضافة مني، كما أنه يمكنك أن تحذف من الآن فكرة الحظ أو القدر، فلست بالذين يؤمنون بذلك.. ما حصل لا

يحتمل مخرجاً آخر غير الذي أقول والذي رأيته لوحدي من كرسي المقهى كمشاهد شاشة كبيرة بلا قدرة على تغيير البرنامج ولا تجاهله. رأيته للمرة الأخيرة برأسه المنتصبة، ويتسارع يخالف حركاته المعتادة، يرفع يديه للأعلى لتكون بانتصاب رأسه وكأنه يشد السماء إليه.. دون أن يسمح لي الوقت بفهم وقفته، رأيت كيف تنفطر شرفة البناية بسياجها الخارجي لتقع بلا ضجة كبيرة فوقه وتتمدد على كامل جسده الذي اختفى كلياً من مشهد نظري ومن شارع سقوطه، وكأنه قد وجد أخيراً ما يقنعه كشاهدة تعلن عن وجوده الأخير. ما أن انتبه الناس حتى هرعوا ليقتربوا من مكان الحدث، فرغ المقهى وبقيت وحدي بلا حراك في نفس الكرسي الذي شهد حكايته منذ لحظات.

توقف الرجل الأشيب عن الحديث. شرب القطرات الأخيرة من كأسه. نهض ومضى باتجاه طاولة قناني النبيذ ليملأ كأسه دون أن يسألني شيئاً أو ينتظر رد فعلي على حكايته، واختفى في الجموع.

حاولت البحث عنه من مكاني ولكنني لم أعثر له على أثر وكأن جموع الحاضرين قد أغرقته في فوضاها.

لم يعد لجواري ولم أره بعد ذلك.